التّنظير عماد نشاط المترجِم
ميشال بالار (Michel Ballard)

ترجمة د. محمد بسناسي*
جامعة ليون–2 فرنسا

Résumé: Dans le souci d'insister sur le poids des facteurs sociolinguistiques ou sur l'importance de la réception, la traductologie court aujourd'hui le risque de déformer notre perception de la traduction, et de nous amener faire une sorte de grand tour à la périphérie du phénomène. Une approche réaliste de la traduction ne peut nier ces considérations, mais elle ne devrait pas ignorer non plus ce qui est à l'origine de la traduction : les différences linguistiques et les textes en tant qu'objets à comprendre et à recréer. Une étude sur corpus de la traduction doit redéfinir les notions d'équivalence, l'unité de traduction et leurs relations avec le développement effectif de l'acte de traduire lui-même. Elle devrait également prendre en considération, et nous permettre d'examiner, divers aspects de l'intervention du traducteur comme étant des éléments de base pour la théorisation.
Mots clés : traducteur, étude sur corpus, équivalence, théorisation, l'unité de traduction.

Abstract: In their concern to emphasize the weight of sociolinguistic factors or the importance of reception translation studies today run the risk of warping our perception of the matter at hand, taking us into a sort of grand tour at the periphery of the phenomenon. A realistic approach of translation cannot wave aside these considerations but it should not disregard either what is at the root of translation: linguistic differences and texts as objects to be understood and created. A corpora-based study of translation has to redefine the notions of equivalence and unit of translation in connection with the actual development of the act itself. It should take into account and allow to explore the various aspects of translator's expertise as basic elements for theorization.
Keywords: translator, corpora-based study, equivalence, theorization, unit of translation.

ملخص: في خضمّ تأكيد الدراسة الترجميّة على العوامل الاجتماعيّة/اللسانيّة أو على أهميّة التلقّي؛ فهي قد تشوّش اليوم نظرتنا للتّرجمة، كما أنّها قد تقودنا إلى اقتفاء مسالك ثانويّة لتدارس الظاهرة. صحيح أنّ مقاربة واقعيّة خاصّة بالتّرجمة، لا يمكن أن تتغاضى عن هذه الاعتبارات بيد أنّه لا ينبغي أن نتجاهل كذلك بواعث التّرجمة، من اختلاف بين الألسنة، وواقع النصوص من حيث أنّها مواضيع يجب أنْ تُفهم ويُعاد إبداعها، ولما نستعين بالمدونات من أجل دراسة التّرجمة ينبغي إعادة تعريف مفهومي التكافؤ ووحدة التّرجمة، وتعالقهما بالتطوّر الفعلي لعمليّة التّرجمة نفسها. وينبغي لهذه الدراسة أن توضح لنا، وأن تحسب حساب، شتّى مظاهر تدخلّات المترجم؛ من منطلق أن هذه التدخلّات عناصر أساسيّة في التّنظير.

كلمات مفتاحيّة: مترجِم، دراسة المدوّنات، تكافؤ، تنظير، وحدة التّرجمة.

تمهيد: تمّ إطلاق تسمية الدراسة الترجميّة (la traductologie) لأوّل مرّة عام 1972م، خلال ملتقى للسانيات في كندا، حيث اقترح بريان هاريس (Brian Hariss)[1] استعمال هذا المصطلح، لما يتعلّق الأمر بدراسة تلك الظاهرة التي يمارسها الأفراد بصورة تلقائيّة والتي اِسْمُهَا التّرجمة. وليس من نافلة القول التذكير بأنّ البعض، في الأوساط الجامعيّة، يرغب في الحمل على الاعتقاد بأنّ انجاز الترجمة هو بحثٌ، ولا غرو في وجود بحث (بحث عن المعنى، وبحث توثيقي، وبحث في إعادة الصياغة)، بيد أنّ الأمر لا يعدو إلى أن يصل بحثا، بغية تحليل وبناء العمل الذي أنجزه المترجِم بصورة تلقائيّة. إنّ السيّاق الذي اقترح فيه هاريس مصطلح (الدراسة الترجميّة)، وصياغته الأولى كانا متأثرين باللسانيات ممّا أدّى إلى فرز ضروب من الجدل. ولقد قام هاريس، فيما بعد، بإضفاء ليونة حول توصيفه المصطلح ليغدو طيّعا[2]*. وعلى كلّ حال، إنّ الاتجاهات التي سلكتها الدراسات حول الترجمة، وبخاصة في البلدان الأنجلوسكسونيّة (أو الدول الواقعة تحت تأثيرها)، فَصَلَتْ حقلَ، – (ويعني مصطلح حقل مجالا بحيث لا توجد دائما

علاقات تربط بين المشتغلين فيه)–، الدراسة الترجميّة فصلا مستقلاّ عن المجال اللساني، إلى درجة أنّه يحلو إلى البعض التأكيد أنّ التّرجمة ليست عمليّة لسانيّة.

من الصعب أن تكون لدينا نظرة شاملة وثابتة حول موضوع نقوم بتحليله لاسيما – مثلما هو الحال مع التّرجمة– عندما يتسم الموضوع بالتّعقيد، ويرتبط بالكثير من الأبعاد التي تتيح تمخضّه؛ فمن الضروري التّوضيح بأنّنا ننزع في أبحاثنا، إلى تفضيل وجهة النظر هذه أو تلك، أو التّركيز في دراستنا على هذا المظهر أو ذاك. إنّ الدراسة الترجميّة التي أمارسها، تثوي على ملاحظة النصوص المترجَمة ونظائرها من النصوص الأصلية؛ ذلك أنّني على قناعة بأنّ علما،– (والعلم ليس بالضرورة دقيقا: ينبغي أن ينطوي على هوامش من الشكوك والمحدوديّة)–، يجب أن يتأسس على ملاحظة الواقع. وهذا التأطير "المادي"، لا يعني بطبيعة الحال نسيان أو ترسيخ أبعاد إنتاج نصوص الانطلاق والوصول، بل على العكس من ذلك. ولا ريب في أنّني وَسَمْتُ الدراسة التُرجميّة بوسم العلم بلا رويّة؛ (ذلك أنّ البعض قد يتشوّف فيما صنعت تكبّرا ويقينيّة، في حين إنّ المصطلح يعني لي إجراءً قائما على الملاحظة، والتّحليل، والبّحث عن طائفة من البِنيات، خلال مراحل متفرقة من سيرورة العمل)، وما الدراسة الترجميّة، في الواقع، سوى دراسة متمثّلة في تساؤل، نطرحه حول نشاط المترجِم.

موضوع الدراسة ووسيلة الملاحظة:

موضوع الدراسة: تبدو لي طبيعة التّرجمة كما لو أنّها ذات أبعاد ثلاثة: ماديّة وروحيّة**، واجتماعية/لسانيّة؛ ومبعث ماديّتها أنّها ناجمة عن عائق تعدّد الألسن إذ كلُّ لسان له علاماته وعلائقه الخاصّة، ومن ثمّة فإنّه يبدو لي أنّه لا يمكن تلافي أخذ ماديّة اللغات بعين الاعتبار من مناح عديدة: أنّها عائق، ومادّة للعمل وأداة للحكم على تأثير التّرجمة، وأساس مقارنة من أجل الحكم على التكافؤ (حتّى إنّ كلّ هذا يدخل في انشغالات بعض النّاس). وطبيعة التّرجمة روحيّة، لِمَا ترومه من

تأسيس ونقل لمحتوى مبوتق، يفترض إجراء عددٍ من العمليات الذهنيّة، من شاكلة بناء المعنى و/ أو تشكيل موضوع النص، وما يترتب من مكافئات نصيّة. كما أنّ التّرجمة هي كذلك ذات طبيعة اجتماعيّة/لسانيّة؛ لأنّها تدور في سياق تبادل وتواصل، بحيث تتدخل عدد من الفواعل الاجتماعيّة، التي تتولد عنها طائفة من المعايير والأعراف.

دون أن أتعسّف في استعمال الأنموذج الثلاثي، يبدو لي من الصواب التّركيز على أنّ التّرجمة تتموقع، وتتطوّر بين ثنايا ثالوث: الإنسان، والفضاء، والزمن. وتمثيل الفضاء مهّم لدرك حقيقة التّرجمة؛ فهذه الأخيرة عمليّة تنطوي على عمق وتعقيد (من ناحية أنّها تحوي مستويات عديدات تدخل في عملها)، وهي ممتّدة في الفضاء والزمن. ويشكّل النص فضاءً، وتتدرج قراءته في الزمن، وإنّ عمليّة بناء المعنى هي كَشْطٌ، ينطلق من العلامة وصولا إلى السياق، أمّا إعادة الكتابة فتأخذ عادّة المجرى المعاكس. وتخلق التّرجمة فضاءً، من طريق إنتاج نص آخر، يحلّ محلّ النص الأول، لكن إذا ما عوّلنا على دراسة تقوم على تحليل المدوّنة، فإنّ النص المترجَم يدنو من النص الأول. وإنّ الزمن يشكّل بعدا مفصليّا في نشاط التّرجمة؛ ومبعث ذلك أنّ الزمن ترد فيه عمليات من شاكلة: القراءة والتّأويل – الذي ليس بالأمر المتاح لأيّ كان –، وإعادة القراءة، وتنضيد نص الوصول. ليس من المستيسَر أن نترجِم؛ إذْ لا يقوم عمادُ التّرجمة على تتّبع إجراءات معيّنة، ولئن كانت المقابلات، المحدّدة سلفا، تخدم أو توافق الإجراء المنتهَج. وتقتضي التّرجمة إتقان اللغات، لما له من شأن في تذليل التّأويل والكتابة وتتعاقب في مسار التّرجمة كلّ من الآنيّة، والسلاسة، والإلهام، ومخاض الإنضاج وقد يقود هذا المسار إلى إيجاد الحلول.

والخليّة النشيطة في التّرجمة هي الفرد، رجلا كان أم امرأة، ومن الضروري إدماج هذا الحضور في كلّ مرحلة من مراحل التّرجمة، ولئن كانت أسطورة

التّرجمة الجيّدة، تروم أنْ ينصهر المترجِم مع روح وأسلوب الكاتب، فإنّه لا ينبغي المغالاة في شأن الفوارق بين النسختين؛ فهذه الظاهرة يستعصي التستّر عليها. ومن اللازم أن تلقى مسألة الذاتيّة مكانا لها في نظرية التّرجمة، إذ هي تتجلّى في القراءة كما في إعادة الكتابة، وإذا ما أخذنا أيضا في الحسبان العامل البشري، فحريّ أن ندمج في النظريّة هنّات الإنسان؛ ذلك أنّ تدارس الغلط أو جملة الشكوك هو من الدراسة الثمينة بمكان، لا يقلّ شأنها من حيث القيمة عن النظر في اليقينيات. وإنّ الرهان المفروض على التُرجماتي (traductologue)، إنْ لم يقتصر على مقاربة عملية الترجمة بعقلانيّة، فهو على الأقل في مسعى لدرك، كيف تنتظم التّرجمة وهي على ما هي عليه من التّعقيد البالغ، وذلك دون الاستسلام قبالة التحدّيات، أو الوقوف عند الحدود التي قد تؤدّي إليها مسألة البّحث. أمّا الطريقة التي أمارسها؛ فهي تنوي على النظر في المدوّنة، وهي طريقة تفترض، بطبيعة الحال، تشكيل معالم سياق إنتاج نص الانطلاق، ونص الوصول، كمرحلة أولى. وتتمحور المرحلة الثانيّة حول تحديد، ما يخلّفه عمل المترجِم من أثر، استنادا إلى النظر في النصوص، بيد أنّنا بحاجة لأداة ملائمة، قد تكون بمثابة وحدة التّرجمة، إذ إنّها غالبا ما تتكئ على تعريف فيني وداربيلني (Vinay & Darbelnet)[3] إنْ بشكل ضمني أو صريح (وهذا على الرّغم من الانتقادات التي صيغت إزاءها). ومفاهيم من شاكلة: وحدة التّرجمة، وإجراءات التّرجمة، بالطريقة التّي بسطها كلٌّ من فيني وداربيلني، لا تُعَدُّ ملائمة لإيضاح وتقصّي أثر المترجِم.

وسيلة النظر: وحدة التّرجمة: لا يخلو تعريف وحدة التّرجمة عند فيني وداربيلني من غرابة، ومن تضييق كبير؛ ذلك أنّ حدّها ليس بالجامع المانع وينطوي على تناقضات في المصطلح: "نحسب **وحدة الفكر**، و**الوحدة المعجميّة** و**وحدة التّرجمة** على أنّها مصطلحات **مكافئة** لبعضها البعض؛ فهي في نظرنا تعبّر عن حقيقة واحدة، منظور إليها بنظرة مختلفة. **فوحدات التّرجمة هي وحدات**

معجميّة، وتتضافر فيها عناصر المعجم للتعبير عن عنصر تفكير واحد. ويمكننا القول كذلك إنّ وحدة التّرجمة هي أصغر قطعة من السياق الخطابي، بحيث إنّ علاماته تبلغ من الانسجام مبلغا، لا يجب بموجبه ترجمتها منفردة بعضها عن البعض". (فيني وداربيلني، 1966، ص 37، نحن من سَوّدَ رسم المصطلحات).

ينزع تعريفهما، بادئ ذي بدء، إلى إعطاء صورة عن وحدة التّرجمة، – وآية ذلك ما يستتبع التّعريف من أمثلة (فيني وداربيلني، ص 39–42) –، والتي وإن استندت إلى المعنى؛ فهي تتمحور حول مفردات المعجم. وتتكئ إذا النظرة حول وحدة التّرجمة على العبارات، وبخاصّة الاصطلاحيّة منها، كما ينزع التّعريف، إلى تفضيل فكرة مفادها، أنّ وحدة التّرجمة، تقوم قائمتها على الفرق في التّركيز بين مقطعين، أو على الانسجام والتآلف بين عنصرين يكوّنان عبارة ما. ثمّ، إنّه وعلى الرّغم ممّا قيل عن: "أصغر قطعة من السياق الخطابي، بحيث إنّ علاماته تبلغ من الانسجام مبلغا، لا يجب بموجبه ترجمتها منفردة بعضها عن البعض"؛ فإنّ التّعريف يتمحور حول نص الانطلاق، مقوّيا وَهْمَ تقسيم وحدات التّرجمة في نص الانطلاق إلى درجة أن المنظّران لا يُترجمان حتّى بعضا من أمثلتهما. وأخيرا بما أنّهما أبرزا أسبقيّة المعنى بالاستعانة بوحدة التّرجمة – المنبنيّة على نص الانطلاق –؛ فَهُمَا لم يلتفتا إلى مرحلة التّأويل، ولم يُدرجا لما لهذه المرحلة، من وقع وتأثير، في تصوّرهما لوحدة التّرجمة.

يرتبط التّنظير المتوارث عن فيني وداربيلني ارتباطا وثيقا بمفهوم الإجراءات. وأذكّر بما يقولان بشأنها، من منطلق مسار التّرجمة: "يبدو للوهلة الأولى أنّ مسالكها وإجراءاتها متنوّعة، غير أنّه من الممكن اختزالها في طرائق سبعة، وهي تتفق مع صعوبات ذات طابع آخذ في التصاعد، ويمكن أن تُستعمل بمعزل عن بعضها البعض، أو بتضافر عدد منها" (فيني وداربيلني، 46).

وهكذا فَهُمَا يعرضان عرضا إجراءاتهما السبعة المعروفة: الاقتراض، المحاكاة التّرجمة الحرفيّة، التّطويع، الإبدال، التكافؤ، التكييف، وإنّ نفرا من أتباعهما يأخذونها على عواهنها، ويضيف آخرون إليها إجراءين أو ثلاثة حسب الاقتضاء وراح بعضٌ مناوئيهما في تخفيض عددها، بحيث لم يُبقوا منها سوى اثنين: التّطويع والإبدال، هذا إذا ما غضضنا الطرف، عن أولئك الذين لا يعيرونها شيئا من الاهتمام، أو ينظرون إليها على أساس أنّها وصفات جاهزة، وهي توصيفات تحطّ من قيمتها، أمّا التّوصيف الأوّل فلا يحملها محمل الجدّ، وأمّا الثاني، فيشير إلى ما يتّم تحضيره في المطبخ من طبخات متواضعة، ولقد سبق لي وأنْ بسطتُ موقفي إزاءها، بالتّفصيل في دراسات عديدة[4].

ومن بين ثغرات منهج فيني وداربيلني هي جملة الإجراءات؛ فليس فقط لأنّها ضئيلة العدد، إذ لا تحيط بعمليّة التّرجمة إحاطة شافيّة، بل أيضا لأنّها لا تمّت بما فيه الكفاية إلى العمليّة ذاتها، كما أنّها لا توضح الآليّة التّنظيريّة، القمينة بوضع تأطير لتحليلِ ومفهمةِ وحدة التّرجمة (وما يستتبع ذلك من تحليل ومفهمة التكافؤ). وعلى صعيد آخر، فهل التّرجمة هي مسألة إجراءات يا تُرى؟ أُفَضِّلُ شخصيّا الحديث عن عمليات، تعكس المراحل الثلاثة المطروقة سالفا؛ أي عمليات التّأويل والتّفسير وإعادة التّنسيق، وسيكون لنا حديث عن هذه المفاصل.

ينبغي أن تتيح لنا ملاحظة التّرجمة (ولقد أتاحت لنا) الوقوف على معرفة كفاءة المترجِم، حتّى يتسنّى تحسين وتيسير اكتساب الكفاءة المطلوبة عن بيّنة من أمرنا. ومع ذلك، فلا يمكن أن تحلّ الكفاءة محلّ الذكاء والموهبة، والاستعداد الفطري ولا أنْ تُعَوّض الحافز. وليس بمقدور الدراسة التُرجميّة أن تَهَبَنَا آلة تعوّض كلاّ من التّفكير والعمل؛ فدورها ليس بأكثر من دور اللسانيّات، أو علم النص؛ فهذان العِلْمَان يسمحان بمفهمة جيّدة للمشاكل، وبتقديم تحليلات في المستوى، وباتّخاذ قرارات تتحلّى بالوعي الكبير.

ومن جهتي، أحسب وحدة التّرجمة جزءً مِنْ كلٍّ (أي المسار العام الذي يصبو إلى إعادة إنتاج النص، بواسطة لغة أخرى غير تلك التي صيغ فيها في الأصل) ولوحدة التّرجمة أسٌ (base) في نص الانطلاق، وتأسيس (aboutissement) في نص الوصول، وكي يتحقّق ذلك فهي تمرّ بين ثنايا دماغ المترجِم.

تنطلق دراسة التّرجمة الثاويّة على المدوّنة، من نتيجة مفادها، وضع النص المترجَم بجنب الأصلي، وهي تبحث في المقام الأوّل في تحديد مكافئات، بغية الوقوف على عملية توليدها؛ بمعنى الارتباط الحقيقي بمسار التّرجمة. وتُعدّ هذه المحطّة اتجاها معاكسا لتشكيل وحدة التّرجمة (خلال فترة عمل المترجِم)؛ ومبعث ذلك أنّ هذا الاتّجاه ينطلق من أرضية شكليّة، حتى يقارب الديناميّة التي ينطوي عليها؛ أي عمليات التّأويل، تفاسير مرادفة، وإعادة كتابة خاضعة لقوانين لغة ونص الوصول، وهي عمليات متتابعة، ومبدئيّا، غالبا ما تتعالق في الواقع وتتوالج فيما بينها.

باستطاعتنا القول إنّ الموضوع هو النص؛ فيكون هناك تشكيل لوحدة عمل في التّرجمة، عندما يجري المترجِم – بعد تأويل الأنساق–، علاقة بين وحدة مكوِّنة لنص الانطلاق مع نظام لغة الوصول، ابتغاء تحصيل تكافؤ مقبول، من شأنه المساهمة في إعادة كتابة نص، بحيث إنّ التكافؤ الكلّي – بالنظر إلى نص الانطلاق – ينبغي أن يخضع لإعادة بناء داخلي، يُمليها الانسجام والوضوح، ما يعني أنّه يوجد العديد من ضروب وحدات التّرجمة، على المستوى الشكلي، وفق أسّها (base) الظاهر في نص الانطلاق (والحال هي هكذا غالبا)، أو كما تتولّد بالأحرى وحدة التّرجمة حين تشكيل نص الوصول، وتتولّد كذلك من جملة المقتضيات غير اللسانيّة الخاصّة بثقافة الاستقبال.

إذن، ليست وحدة التّرجمة هي وحدة نص الانطلاق، والتي هي وحدة للتّرجمة وليست وحدة التّرجمة كذلك وحدة لنص الوصول، والتي هي وحدة مترجمَة. إنّ

تجزئة نص الانطلاق (ولو من طريق وحدات هامّة من شاكلة الجملة)، لا يعدو أن تنجم عنه أسس، بحيث لا يمكن توكيد مآلها يقينا، بيد أنّ هذه الأسس تُشكّل معطى دلاليا/أسلوبيا، قد يستند إليه المترجِم (أو لا)، لمّا يجري خيارات التّجميع.

وبالجملة، أتصوّر إذًا وحدة الترجمة على أنّها مسحٌ مرّكب، ينطلق من بناء المعنى (وهي عمليّة أصليّة أو أساسيّة) لإنتاج مكافئات (المرحلة الثانيّة من العمليّة)، تبعا لما تصبو إليه من إعادة كتابة النص بحيث يتولد – عن كلّ من الانسجام وقبول النص –، ضربٌ ثالث من تدخلات المترجِم. وتتغيّأ هذه التدخلاّت غالبا، إعادة وحدة النص، وكذا تحقيق مزاياه التداوليّة.

سوف أتحدّث تباعا وبإيجاز عن ملاحظة هذه المراحل الثلاثة، والتي غالبا ما تتداخل فيما بينها، للتأكيد على سمات، تبدو للبعض ولكأنّها حدود للتّرجمة، أو حتّى حدود للتّنظير، غير أنّها من منظوري لا تبدو كذلك، وعليه فمن الأليق دمجها في منطق تتبّع حقيقة وواقع الملاحظة.

ملاحظة كفاءات المترجِم الثلاثة:

الكفاءة التأويليّة للمترجم: تفترض ملاحظة التّرجمة بادئا تساؤلا حول الكفاءة التأويليّة للمترجِم، مثلما تتبدّى أو تبرز في خيارات الصياغة، ومثلما تمارَس (الكفاءة التأويليّة)، وفق معطيات وتمثّلات النص. لا يعني هذا بالنسبة إلى التُرجماتي تنقيط المترجِم، لكن لا يمكن أن نتصور علما دون روح نقديّة، ودون تساؤل حول صحّة المعنى المقترح في النص، وإنْ على مستوى وجهة استعمال المعنى.

فلنلاحظ مقتطفا من (**غاتسبي العظيم**): (*The Great Gatsby*)، والترجمتان المقترحتان همـــا من إنجـــاز فيكتور ليونا (Victor Liona)، وميشال فيال (Michel Viel):

"In consequence, I'm inclined to reserve all judgements, a habit **that has opened up many curious natures to me** and also made me the victim of not a few veteran bores. The abnormal mind is quick to detect and attach itself to this quality when it appears in a normal person, and so it came about that in college I was unjustly accused of **being a politician**, because I was privy to the secret griefs of **wild**, unknown men" [5] (ف. سكوت فيتسجيرالد، ص7)
"وبالتّالي، فقد درجتُ على الاحتفاظ بأحكامي، وهي عادة **فتحت طريق الفضوليين إلى شخصي**، ولم يكن هذا من دون أن يجعلني ضحيّة لعدد غير هيّن من المزعجين الأشدّاء. وسرعان ما يكتشف الفرد العادي هذه الخصلة ويتعلّق بها، لما تظهر عند شخص عادي؛ وهذا مبعث اتّهامي ظلما في الجامعة **بالتسيّس السّافل**، لأنّني كنت رجل ثقة، يبوح له الأولاد المجهولون و**المتهوّرون** بأشجانهم الدفينة" (ليونا)
"وبالتّالي، فقد نَزَعْتُ إلى التوقف عن إصدار أحكامي، وهذا ما جعل منّي **محلّ فضول تارة**، وضحيّة للعديد من المزعجين الأشدّاء تارة أخرى. وسرعان ما تتعرّف العقول القلقة على نوع هذا المسلك الذي تسلكه النّفس وتتعلّق به، لما ينوجد عند شخص عادي، وهكذا فقد اُتهِمْتُ ظلما في الجامعة **بالاهتمام بالسياسة**؛ بسبب أنّ أولادا مجهولون، جعلوا منّي **بكثير من الإفراط** رجل ثقة ليبوحوا لي بأشجانهم الدفينة" (فيال)

لقد أوّل المترجمان (being a politician) بمعنى "ممارسة السياسة"، وبإحالات منحطّة عند ليونا (ففي الواقع يحيل معنى politicailler إلى politicking)، لكن يمكننا أن نتساءل عمّا إذا كان بالإمكان تأويل (being a politician) وفق معنى عام، أورده القاموس في المقام الثاني من المعاني: "2 شخص يستميت لاستغلال النّاس والأوضاع، أو لحضّ النّاس على فعل ما يريده هو: (تحتاج لأن تكون

سياسيا بعض الشيء كي تنجح في هذه الشركة)" (**قاموس أكسفورد للمتعلّم المتقدّم**). أمّا **قاموس روبار وكولينز**، فلا يُقدّم سوى ترجمتين لهذا المصطلح: "رجل سياسي" و"سياسي". وفيما يتصّل بوصف **قاموس أكسفورد للمتعلّم المتقدّم** للمعنى الوارد في المقام الثاني؛ فيبدو لنا أنّه يتجاوز ميدان السياسة، وفي سياق مؤلَف (**غاتسبي:** *Gatsby*)، ألسنا بصدد الحديث عن "رجل محيّر"؟ وبالمقابل فبالنسبة ل: (wild)، فقــد وقع المترجِمان في اختلاف بائن في تأويلها، ففي التّرجمة الأولى، نُظر على أنّها دالّة على (متهوّر/مضطرب)، اتفاقا مع ما يكافئ: (to lead a wild life): (عاش عيشة متهوّرة، عاش حياة مضطربة)

أمّا التّرجمة الثانيّة، فقد أوّلتها بمعنى (unrestrained): (مجنون بعض الشيء مفرِط)، وأسقط هذا المعنى على الطريقة، التي يتّم بها البوح بالأسرار (بطريقة مفرطة)، (بإفراط).

وأُوِّلَت البنية التّركيبيّة (**a habit that has opened up many curious natures to me**) في التّرجمة الأولى، على أساس أنّها تدلّ على أنّ أفرادا فضوليون، تفتّحوا على غاتسبي، بينما رأت التّرجمة الثانيّة أنّ فضوليين اهتّموا ب: غاتسبي، فماهي التّرجمة التي هي على صواب؟ ولا يلفي ملاحِظُ التّرجمة من مانع في طرح تساؤلات، وهي ليست مجرّد أسئلة تدور حول صحّة التّأويل فحسب ولكن حول الطّريقة التي ينبني عليها التّأويل والمعنى كذلك، وحرّيّ فرض أو قبول حدودٍ من المعالم (repères)، يمكن أن يثوي عليها المعنى. وبذا، فينبغى أن ندمج في التّنظير الغموض (le flou)، والطابع غير المحدّد للمعنى، وصعوبة استخلاص المعنى (بسبب: المولدّات، والألفاظ الخاصّة بكاتب ما، وتغييب السّياق والسيّاق النّاقص وهو في نصه الأصلي– من دون أن يكون قد تعرّض لاجتزاء في شاكلة ما يصنعه واضع نسخة الامتحان من قصٍّ–). وسنجد حرجا في إخفاء حدود الأخذ بناصيّة المعنى، إذا ما أزمعنا الظفر بنظرة واقعيّة حول التّرجمة.

الكفاءة التّفسيريّة للمترجِم: إنّ إجراء مقابلة بين مجموعة العناصر من مقاطع ومجتزاءات سياقيّة – والتي يبدو توافقها – بين نصي الانطلاق والوصول، يشكّل منطلقا لمعاينة الكفاءة التّفسيريّة للمترجِم، ويمكننا من الناحيّة الشكليّة تحديد هذا الضّرب من الكفاءة في مخططات من التكافؤ، نستطيع بناءها بالاستعانة ببعض الأبعاد، من قبيل طبيعة العلاقة الشّكليّة بين الأس (base) والتأسيس (aboutissement)، ورصد حجم العناصر المتضمَنة، وتقدير طبيعة عمل المترجِم؛ وذلك بالنظر في حجم ما احتيج من جهودٍ وتدخلّاتٍ.

وإنّ عماد وضع نظام وصفي، يتصدّى لمخططات التكافؤ[6]، بحيث يثوي على تقابل أساسي، بين التكافؤ المباشر، الذي يتوافق فيه تقريبا الأسّ والتأسيس كلمة كلمة، وبين تكافؤ غير مباشر، لما ينطوي التّأسيس في نص الوصول على اختلافات متنوّعة، بخلاف ما هي عليه الحال مع الأسّ في نص الانطلاق.

يُنظر إلى التكافؤ المباشر على أنّه توافق شبه خطّي بين الأس والتأسيس، غير أنّ تسميّة التّرجمة الحرفيّة، التي غالبا ما تُلصَق به، تعطي صورة مضلّلة؛ لأنّ هذا التكافؤ هو تحصيل جهد هام من التّرجيح، وما تُوّصِلَ إليه من تقدير، بعدم جدوى الاستنجاد بإجراءات معقّدة. ويحتوي التكافؤ غير المباشر، الأكثر تعقيدا، على أربع مخطّطات كبرى على الأقل: تحليلي، اصطلاحي [متعلق بعبارة اصطلاحيّة] دلالي، تداولي/وظيفي.

والتكافؤ غير المباشر التّحليلي هو إجراء ملاحظات تخصّ ترجمات سابقة. ويتعلّق استخلاص التّرجمة بالرّابطة الدلاليّة/الشّكليّة بين الأس والتأسيس؛ وهو تكافؤ يستعين بخصائص مشتركة بين اللغتين، لكن كلّ لغة تستعملها بطريقتها. فعلى مستوى الوحدات الكبرى من شاكلة الجملة البسيطة والمركبة، يحصل تعديل هذه الروابط في شكل تعالقات أو تقطيعات. أمّا على مستوى الوحدات الصغرى فنلفي الاختلاف من جانب التّركيز، وفي إعادة التّصنيف أو فيما يخص البّحث عن

المفردة اللائقة، من طريق النظر في قوائم المرادفات (synonymes) أو بالخضوع لإكراهات المتصاحِبات (collocations).

ويخص التكافؤ غير المباشر الاصطلاحي، بصفة عامة، معالجة العبارات الاصطلاحيّة والمسكوكات. والتكافؤ غير المباشر الدلالي، قد يكون إقرارا بحالة من المحدوديّة، ويتجلّى هذا الضّرب من التكافؤ، إذا استرشدت إعادة الكتابة بطرائق من التّفسير الإجمالي للوحدات الكبرى، وإذا ما استنارت بِسُبُل التّعريف والتّوضيح، والتخلّص من المجاز بالنسبة للوحات الصغرى. وأُدْرِجُ في خانة التّوضيح ظواهر من شاكلة الزيادة الترجميّة (incrémentialisation)، والإحالة؛ فَهُمَا، من منظوري، تَدَّخُلَّان طبيعيان، من صميم عمل التّرجمة.

تعتمل التّرجمة – في الأنواع الثلاثة التي سلف ذكرها– حسب نمط إعادة صياغة بين لسانيّة (reformulation interlinguistique) وفق مخططات محدّدة ومسيّجَة، أمّا في النّوع الرابع والمتصل بالتكافؤ التداولي/الوظيفي؛ فلدينا الانطباع بشدّة التمايز الشكلي (والذي هو بخلاف التكافؤ الاصطلاحي، لم يتّم تواضعه من قبل الجماعات الاجتماعيّة/اللسانيّة)، وإنّ ديناميّة إعادة الكتابة هي خاضعة لخلق تأثير في متلقّي النص. ويدخل التكافؤ التداولي/الوظيفي في ترجمة التّورية والشعر، والشعارات الاشهاريّة، والعناوين، والدبلجة السينمائية، بمعنى أنّها تتجلّي في الحالات التي لا يكتفي فيها موضوع التّرجمة بدلالة الكلمات فقط، وإنّما تشمل وظيفة اللغة في النص، أو في أداة استعمالها، والتأثير الذي يُرجى من العنصر المترجَم إحداثه في نفس المتلقّي. والحق، مهما كان نوع النص المترجَم، فإنّ هذا المبدأ أساسي، وينبغي التساؤل دائما حول إذا ما كنّا نعبّر عنه بالتّرجمة يحظى فعلا بالقبول، بيد أنّ هناك عددا، لا يُستهان به من الحالات، تحظى فيها التّرجمة بالقبول، سواء بترجمة مباشرة، أو بترجمة غير مباشرة، تحليليّة كانت أم دلاليّة ويتسنّى هذا ببذل جهد يسير من الإبداعيّة (créativité).

والنّوع الرابع من التكافؤ، يعوّل أكثر ما يُعوّل على مبدأ الإبداعيّة ويستجليه؛ أيْ مقدرة المترجِم توليد تكافؤ، لا يقتفي منوال مخطط الانطلاق، بحيث تكون التّرجمة المتوّصل إليها غير موجودة سلفا، وغير مستخلصة من لدن هذا التّخطيط الأصلي، وهي فضلا عن ذلك تخلق المفاجأة، والإثارة. فإذا سعينا إلى وضع سلّم لما تتطلّبه إعادة الصيّاغة من قدرات ضروريّة؛ فسنضع أوّلا الذاكرة (مفردات عبارات)، وقدرة الاختيار (التعدّد الدلالي، مستويات الكلام)، ومقدرة الشّرح التّحليلي (ترجمة وتحويل)، وفي الأخير المقدرة على الإبداعيّة.

ولا غرو أنّ مكوّن الإبداعيّة في عمليّة إعادة الصياغة له مكانة بارزة، وهو لا يُستعان به فقط كحلّ نهائي أو كعون أخير، وإنّما يمكن أن يتجلّى بين الفينة والفينة بالنسبة لمن يتبرّم من الاشتغال على التقابل، والإبداعيّة هي بمثابة خيار تلقائيّ (أو عمدي) متناغم مع الحلول التّحليليّة. وبذا، فإنّ دراسة الإبداعيّة، تستحق أن تكون مزدوجة: الدراسة المتعلّقة بتجلّياتها التّلقائيّة التنافسيّة لبقيّة أصناف التكافؤ الممكنة والدراسة التي تكون ضروريّة في بعض الحالات، لكي تحلّ مشاكل التكافؤ، عندما لا تسنح المخططات الأخرى بحلّها بشكل مُرْضي.

الإبداعيّة الضروريّة: نجري غالبا ربطا بين حشد الإبداعيّة وبين تّرجمة مقتطفات من النصوص أو أنواع من النصوص القائمة على استثمار وظيفة اللعب اللغوي، أو على شعريّة اللغة. وفي الواقع، من اليسير رصد الإبداعيّة في مواضع شتّى، توافق استعمالات شائعة للغة، ومنها السياقات الأقل شعريّة واللعب باللغة كما هي عليها الحال عادة في الشعارات، والشعر، والتّوريّة.

يتجلّى النشاط الإبداعي للمترجِم على مستوى الوحدات المعجميّة، استنادا إلى مدلول في لغة الانطلاق، ابتغاء إيجاد دال عليه في لغة الوصول؛ فمثلا عندما يقتضي الأمر توليد مصطلح بالاعتماد على السيّاق، انطلاقا من أسٍّ ما أو من علاقة اسم شامل/اسم مشمول (hypero-hyponymique). وخــذ على سبيل

التّدليل: الاسم الشامل "شيء" :(thing) لديها وظيفة العائد البَعْدِي (fonction cataphorique)، إذ يُعلن، تحت شكل مبهم، عن كلّ ما سيلي من جملة فرعيّة: "السفر...فرنسا": "to travel … French" ، وإنّ ترجمته ب: "نشاط ثقافي" هي فعل قراءة وتكافؤ غير مستّقر: (thing: ولكأنّها تعمل دورا اسميّا)، لم تنص عليه القواميس:

[يتعلّق الأمر بمجموعة من المدرّسات، ذهبن مسافرات إلى إيطاليا، وهن يعبرن فرنسا] " It made them feel that they were doing an educated sort of **thing** to travel through a country whose commonest advertisements were in idiomatic French".(ه. ج والز، ص 996)[7]
"أحسسن أنّهنّ بصدد مزاولة **نشاط ثقافي** لما سافرن عابرات بلدا، بحيث كانت أتفه الدعايات الاشهاريّة مكتوبة بفرنسيّة اصطلاحيّة" (بالار، 144)

على مستوى الجملة وتواليها، يمكن الالتجاء إلى الإبداعيّة، لمّا يتّضح أنّ التّرجمة الحرفيّة، لا تفي بالغرض بالنسبة إلى مجمل العناصر، أو لمّا نريد إدماج عنصر ما:

"She could do anything if nobody watched her. But the moment a pair of eyes focuses on her, she was a beetle stuck on pin, arms legs beating the air. There was no **purchase**. It was an implement and a derailment" (و. بارسي)
"كان بإمكانها أن تقوم بكلّ ما نرغب فيه، شريطة أن لا يلاحظها أحدٌ. أمّا وإذا حدّقت فيها نظرةٌ ما لهنيهة، فقد كانت تستحيل إلى مغمدّات الأجنحة، الجاثمة على دبّوس، وهي تصفق الهواء بكلّ قوائمها (لا يوجد هناك شيء تتشبّث به). ولم تكن تعرف ماذا تصنع/، ولا كيف تتصرّف، لقد كانت مضطربة وفي حرج من أمرها".

من وجهة النظر المنهجيّة، إنّ العنصر (purchase)، يرتبط بتحديد معنى نادر لمفردة متعدّدة الدلالة:

("prise : الحصول على ; the wheels can't get a purchase on this surface :

لا يمكن الحصول على العجلات في هذه المساحة" ورد هذا في **روبار وكولينز)**، بيد أنّ تحديد المعنى ليس سوى مرحلة من مراحل التّرجمة، وتجري إعادة الصيّاغة عبر إنتاج وحدة صغرى سليمة من الناحيّة الخطابيّة، أين يُدمج المعنى بشكل مقبول على المستوى الكلامي. وإنّ ما تعبّر عنه كلمة (purchase) من مفهوم؛ هو مدمجٌ إدماجا في عبارةٍ، تعيد بصورة شاملة مساهمته التّحليليّة في عبارة لغة الانطلاق. إنّ التكافؤ الحاصل بين العبارتين المسطّر تحتيهما يشكّل وحدة التّرجمة: الأس والتأسيس.

الإبداعيّة التّلقائيّة والتنافسيّة: ويتجلّى هذا الضرب من الإبداع بالنسبة إلى التّرجمة التّحليليّة غير المباشرة في المثال التّالي: " the clothes were too large for **the wearer**"، فإذا ما ترجمنا حرفيّا (wearer)، سنتحصّل على (حمّال) والذي لديه في الفرنسيّة معنى مختلفا، (ومقابله في الإنجليزيّة: porter، بمعنى ذلك الشّخص الذي تكون مهنته حمل الحقائب)، ومن ثمّة، فلا تتوفر الفرنسيّة على مفردة توافق (wearer)، وبمقدور التّرجمة غير المباشرة التّحليليّة توظيف مورفيمات مشكّلة للمفردة: "كانت الملابس فضفاضة بالنسبة إلى **ذلك الذي يلبسها**" وهذا التّحليل المورفيمي: "ذلك الذي يلبسها"، تُسجّله القواميس تحت أنساق متنوّعة:

سيثير هذا الحذاء بهجة الشّخص الذي سينتعلها **(روبار وكولينز):**
These shoes will delight the wearer

حتّى وإنْ واجهنا عبارات من هذا القبيل، فبصورة تلقائيّة، يتيّسر إنتاج تفسيرات إبداعيّة، من شاكلة: "يسبح في ملابسه"، "يحبّذ زبائننا هذا النّوع من الأحذيّة". وفي

نهاية المطاف، سأتناول صنفا هاما من الكفاءات، إذ نادرا ما تَمَّتْ معالجتها، على ما هي عليه في التّنظيرات، وقلّما أُدمِجت في الدراسات التي عنت بالمدوّنات.

كفاءة المترجِم في إعادة الكتابة: غالبا ما يتمّ تقديم المترجِم على أساس أنّه مؤلِف ثان، بالتّركيز على ما يتمتّع به من مهارات ككاتب، بيد أنّ هذا الجانب لطالما غُيّب في التّنظيرات، التي تُهمل الجانب النصي، تبعا لحساسية ما يعتري كتابة ما من نقائص، مما يجعلها مهزوزة في نظام لغة الوصول. وإنّ هذه الكفاءة لتدفع المنظّر أو الملاحظ، إلى التحلّي بالتواضع والتخلّي عن التبجّح، وإلى إدماج مفهوم المنبّه (déclencheur)، في منظومته الوصفيّة، على مستوى نص لغة الوصول.

"He moved over the window : a smallish, frail figure, the meagrenes of his body merely emphasized by the blue overalls **which were the uniform of the party"(5 ص، أوروال)** [8]
"توّجه وينستون نحو النافذة، وكان هزيل البنيّة، وضعيفا. رسمت بذلته الزرقاء نحافته، وكانت **لباس الحزب**" (أوديبرتي ص، 12.)

الظاهرة التي سأحلّلها هي ترجمة الاسم الموصول ب: بَدَلٍ (apposition) بسيطٍ؛ فَلِمَ هذا التّغيير؟ إنّ إعادة كتابة النص بالفرنسيّة، انطلاقا من البدل "a smallish, frail figure"، تولّد المسند الأوّل "كان هزيل البنيّة، وضعيفا"، ممّا يدعو إلى استعمال فعل الكينونة (كان)، بحيث إنّ مقابله (be) غائبٌ في الإنجليزيّة. ثمّ إنّنا نلاحظ توظيفا ثانيّا ل: (كان) من مستهّل صيغة المبني للمجهول الإنجليزيّة (emphasized by)، وبذا، يتكرّر الفعل (كان) في النص الفرنسي مرّتين، ولم يكونا في النص الإنجليزي، وهذه الكلمات المولّدة خلقت سياقا جديدا، ويفضي هذا الإشباع إلى تلاشي عبارة (الذي كان) (وهي ترجمة محتملَة ل: "**which were**")

مما أدّى إلى تحويل الاسم الموصول إلى بدل. ولم يكن هذا متوقعا حين قراءة نص الانطلاق.

الخاتمة: لكي تكون دراسة التّرجمة واقعيّة وعمليّة، ينبغي أن تُدمِج أبعادا من شاكلة: شروط إنتاج التّرجمة، وعلاقة النصوص بالوسائط المستعملَة فيها وعلاقتها بالجمهور؛ بيد أنّ التملّص من مقارنة نصوص الانطلاق والوصول معناه صرف النظر عمّا هو محلّ للتّنظير، إلى توصيفٍ لأشياء جانبيّة للتّرجمة كالتلقّي وإعادة كتابة النص. ومهما كان من تمطّط في علاقة التكافؤ، تحت تأثير العوامل الاجتماعيّة/اللسانيّة، أو عوامل أخرى؛ فلا يمكننا أن نزعم دراستها، دون أن نتساءل حول أثار هذا الفعل، بالرجوع إلى العمليات التي أملت خيارات المترجِم.

وفي جوهرها، تُعدّ التّرجمة عملية معقّدة، لما تثيره من تدخلٍ للتّأويل، والتّفسير بين اللساني، وإعادة الكتابة وترجيح حُكم ما. وصحيح أنّه لا يليق بنا اختزالها في مجرّد عمليّة لسانيّة بسيطة، غير أنّنا لا نستطيع التغاضي عن أمر أساسي، ألا هو مبعث وجود التّرجمة، والمتمثّل في تباين اللغات؛ ولذا فينبغي للمترجِم أن يُحْسِن التصرّف، وأنْ يُسَيِّر كيفيّة النّقل في وضعيّة الاختلاف هذه.

وصحيح أنّه على عاتق الدراسة التُرجميّة الواقعيّة والصادقة، عدم إغفال طبيعة السيّاق، الذي أُنجِزَتْ فيه ترجمة النصوص التي تدرسها، ولا أن تهمل أخذ المُعطَى اللساني في الحسبان، إذْ انطلاقا منه، تتشابك كلّ أنواع التعديلات، بيد أنّه من الضروري الانتباه إلى أنّه في صميم مناطق التّأثير هذه، وفي خضّم الحواجز الواجب تجاوزها، هناك نشاط المترجِم – أي مجموعة المراحل المحدَّدَة، والتي ينبغي فحصها وفق موضوع النشاط (النصوص، اللغات، العوامل الاجتماعيّة/الثقافيّة)–، ولكن ينبغي على الدراسة التُرجميّة أن تدمج العامل البشري مع كلّ ما يتضمّنه هذا الأمر من غوص في ممارسات التّأويل والكتابة، وكذا الأخذ

في الحسبان: ما هو غير منطقي، وما هو تَحَيُّز، وما هو غامض، وكذا مبدأ الإبداعيّة.

الهوامش:

* دكتور من جامعة ليون الثانيّة، أستاذ اللغة الإنجليزيّة.

1- Brian Harris, « La traductologie, la traduction naturelle, la traduction automatique et la sémantique », *Cahiers de linguistique*, Université du Québec à Montréal, n°2 1973, p. 133-146.

وينبغي أن نشير إلى أنّ تمخّض الدراسة الترجميّة لم تكن مع برايان هاريس، لأنّ كتاب (المشكلات النظرية، غاليمار، 1963) لجورج مونان كان أوّل دراسة، في فرنسا ما بعد الحرب وفرّت قاعدة علميّة للبّحث في التّرجمة.

2- Brian Harris, « What I really meant by « Translatology » », *TTR*, vol. I, n°2 1988, p. 91-96.

** الكاتب لا يستعمل مصطلح ذهني(mental)، بل (spirituel) لذلك حافظنا على المقابل: "روحي".

3- Jean-Paul Vinay et Jean Barbelnet, *Stylistique comparée du français et de l'anglais*, [1958], Paris, Didier, 1996.

4- ومن ذلك المقال الموسوم ب: "A propos des procédés de traduction" في عدد خاص قيد الطّبع من مجلة (*Palimpestes*) وهو عدد مُهدى ل:بول بن سيمون.

5- F. Scott Fitzgerald, *The Great Gatsby* [1926], Harmondsworth, Penguin, 1963; *Gatsby le Magnifique*, traduction de Victor Liona [1946], Paris, Grasset ("Le livre de poche"), 1985; *Gatsby le Magnifique*, traduction de Michel Viel, Lausanne L'Age d'Homme, [1991].

6- من أجل معرفة تفاصيل أكثر عن هذا التوصيف ينظر:

M. Ballard, Versus, vol.1: «Repérages et paramètres», Paris, Ophrys, 2003, p. 77-85.

7- H. G. Wells, « Miss Winchelsea's Heart » (1903), dans *The Complete Short Stories of H. G. Wells*, Londres, Benn, 1974, p. 991-1009; traduction française de M. Ballard "Le Cœur de Mademoiselle Winchelsea" dans Nouvelles anglaises de la Belle Epoque, présentées par Pierre Coustillas, Lille, Pul., 1984, p. 139-157.

8- George Orwell, *Nineteen Eighty-four*, réimpression (1 ere éd., 1949) Harmondsworth, Penguin, 1961; 1984, traduction française d'Amélie Audberti Paris, Gallimard, 1950 "Folio", 1972).

توثيق المقال الأصلي:

- Michel Ballard, "La théorisation comme structuration de l'action du traducteur" *La linguistique*, 2004/1 (Vol. 40), p. 51-66.